قضية اليوم

جورج زريق... الاحتجاج الأخير

قتل نفسه لأنه ما عاد يحتمل الذلّ. ربّما لاحتمله لو كان له وحده، لكن أن يصل الذلّ إلى أولاده، فهنا اشتعل. مَن ابتزّه بمستقبل أولاده، مراراً، ليس مجرّد مدير مدرسة طالبه بأقساط متأخّرة. إنّها منظومة معيشيّة كانت تسوّر حياته، نعرفها جيّداً، وهي نفسها، بعناوين شتّى، ما زالت تسوّر حيوات كثيرين في هذه البلاد

محمد نزال

فرضاً، وبدل أن يقتل جورج زريق نفسه، كان قتل مدير المدرسة الذي «أذلّه»... هل كان ليتضامن معه أحد؟ هذه ليست دعوة إلى القتل، قطعاً، إنّما إشارة إلى أنّ «الرأي العام» لا يتعاطف معك، هذا إن تعاطف، إلا إذا كنت في موقع «الضحيّة». كان لينقلب «الشهيد» (كما وصفه البعض) شيطاناً آو، في أحسن الأحوال، مجرماً لا بدّ أن يُعاقب. تماماً عندما يموت أحدهم

عرض جورج سابقاً على مدير المدرسة أن يعمل لديه ليتمكّن من تسديد الأقساط المدرسيّة لولديه

أصبحت زوجة جورج تعمل في المدرسة وباعت خاتمها ليتمكّن ابنها من إجراء الامتحان

أمام باب مستشفى، لعدم امتلاكه المال، يخرج البكّاؤون للتضامن معه، ولكنّهم، هم أنفسهم أيضاً، كانوا سيخرجون طلباً لتعليق مشنقته لو كان «كسَر» المستشفى. هذه هي المعادلة. لا أمر بين أمرين في هذه المعضلة، إلا اللهم في ممارسة الصمت، جبناً أو يأساً، إنّما في المحصّلة هي هي.

الحكاية مألوفة. وقع جورج في ضائقة ماليّة. يحصل أن يطول أمد هذه الضائقة الشهيرة. يُمكنها من أن تُعمّر لسنوات (أحياناً مدى الحياة). ما عاد بإمكانه أن يُسدد الأقساط المدرسيّة لولديه. ما عاد يحتمل إذلال مدير المدرسة لابنه، على ما تقول العائلة، حيث «صفّه» مرّة خارج الصفّ، مانعاً إيّاه من إجراء الامتحان. منسّق اتحاد لجان الأهل في المدارس الخاصّة، يقظان ماضي، ينقل إلينا لغة ذاك المدير، بشارة حبيب، ويضيف: «علمنا رسميّة (حكوميّة). طلب من المدير إفادة، إلا أنّ الأخير رفض، مشترطاً عليه تسديد المتأخرات قبل تسليمه الإفادة. هاتفه جورج وأخطره أنّه سيحرق نفسه أمام المدرسة، ربّما لم يصدّقه. فعلها جورج. هو مسيحي، والمدرسة مسيحيّة، وحكاية المدارس المليئة هذه في لبنان، عند مختلف الطوائف والمذاهب، يطول سردها. في لبنان تُفهم هذه وفق الآتي: «حتّى جماعتك ما عادوا يرحمون». جورج هو ابن مدينة الميناء الشمالية، يقيم في راس مسقا، وتلك المدرسة في بلدة بكفتين. كان الأب، بحسب رواية عائلته، عرض على مدير المدرسة أن يعمل لديه كسائق، وهكذا يُسدّد ما عليه. لم يحصل على ذلك. زوجة جورج أصبحت تعمل في المدرسة، كعاملة تنظيفات، للغاية نفسها، فبادر المدير مرّة إلى خصم أكثر من ثلثي راتبها بدل المتأخّرات. راتبها الهزيل الذي يقرب من 500 ألف ليرة. باعت خاتماً كانت تحتفظ به، مقابل مبلغ زهيد، ليتمكن ابنها من إجراء الامتحان المدرسي. اتراه كان خاتم الزواج؟ هذه تفاصيل تزداد مأساة كلّما أوغلنا فيها أكثر. حاول منسق لجان الأهل، ليلة أمس، أن يتحدّث مع الابن المذهول. هو في سنّ المراهقة. لم يكن يتكلّم «وكأنّه في عالم آخر». سيكبر الابن وسيكبر الأب داخله. هذه أحداث لا تنتهي «في أرضها».

وزير التربية والتعليم الجديد، أكرم شهيب، يقطف اللحظة متعهّداً: «سأتولى متابعة تعليم ولدَي المرحوم جورج زريق وتأمين المنح اللازمة من أجل استكمال تعليمهما». بعض وسائل الإعلام راحت تُهلّل وتطبّل لهذا الإنجاز. شهيب لم يفته، في بيانه، أن يُشير إلى أنّ وزارة التربية «استوعبت خلال العام الحالي في المدارس الرسمية الآف التلاميذ، الذين انتقلوا إليها من التعليم الخاص، بسبب صعوبة الظروف الاقتصادية». الوزير، وسلفه، وسائر الوزراء والمسؤولين، هل أولادهم وأحفادهم في المدارس الرسميّة؟ بالتأكيد ليس هناك من ينتظر جواباً. حكاية تلك المدارس الرسميّة، التي بعضها كـ«المسالخ» في الغرف السائد بين الناس، باتت مزمنة وقيل فيها كلّ ما يُمكن أن يُقال. بات وضعها غرفاً سائداً في الثقافة الشعبيّة. لمَ لا يُسن قانون يفرض على المسؤولين الحكوميين أن يكون أولادهم في تلك المدارس الرسميّة؟ علّ ذلك يؤدي إلى أن يُصلح حالها، ويُصبح الناس، كلّ الناس، لا يرون أن تسجيل أولادهم فيها بمثابة الجريمة بحق الطفولة. في بلادنا لا يأمن الأهل على أطفالهم، أحياناً، على رغم تسجيلهم في مدارس خاصة، بمبالغ كبيرة، وبالتالي لنا أن نتصوّر كيف يكون «رعب» الأهل تجاه المدارس الحكوميّة. المدرسة التي أحرق جورج جسده أمامها، وبعد الضجّة التي أحدثها الخبر، أصدرت بياناً قالت فيه إنّها كانت «تعاطفت معه بسبب أوضاعه الاقتصادية، وأعفته من دفع الأقساط المدرسية، باستثناء رسوم النقليات والقرطاسية والنشاطات اللاصفيّة». طبعاً تضمّن البيان تعبيراً لأي كلام غير ذلك. هكذا، علينا أن نفهم أن جورج، ومن شدّة فرحه بإعفائه من دفع الأقساط، قرّر أن ينتحر وبتلك الطريقة الملحميّة. قبل نحو ثلاث سنوات، نزل أمين زين الدين من سيارته، التي «يعمل عليها» كسائق أجرة، وأشعل النار في جسده. حصل ذلك في بيروت. كان يحتج على محضر ضبط حرّره بحقه شرطي مرور. تفحّم جسده، لكنّه لم يمت. نجا. قال يومها: «أعمل لكي أوفّر لقمة عيش لأولادي». قبله فعلها الشاب عبد الرحمن الجويدي في صيدا. نجا أيضاً. فعلها احتجاجاً «لأننا تعبنا من البلد ومن كلّ شيء. لا كهرباء ولا ماء ولا شغل ولا شي». أما جورج فقد مات. وصل باحتجاجه إلى الحدّ الاقصى والأقسى. هناك مَن لديه ترف البحث في توصيف فعلته، أي إن كانت شجاعة أو جبناً، وهي في الواقع تُلخّص بكلمتين: احتجاج أخير. قديماً قال أسلافنا: «الوجع ما بيوجع إلا صاحبه». باختصار، فعلة جورج هي احتجاج على كلّ المنظومة التي كانت تسوّر حياته. احتجاج، ربّما يلمس الأحياء من بعده أثره، إلا أنّه هو الوحيد الذي لن يرى النتيجة... إلا اللهم إن كان يُراقب من بعيد، من مكان ما، من عالم اقتنع أنه، وفي أسوأ الأحوال، لن يكون أكثر جحيميّة مما كان فيه.

«لفعل شيء ما»

يبدو أن اتحاد لجان الأهل في المدارس الخاصة، إثر ما جرى على جورج زريق، قرّر أن ينظّم تحركاً احتجاجيّاً «حتى لا يضيع دمه هدراً». بالنسبة إلى منسّق الاتحاد، يقظان ماضي، ما حصل «ليس عابراً، نُريد أن نتحرّك لكي لا يكون هناك أكثر من جورج زريق. يوم الإثنين المقبل سندعو إلى اعتصام، وسنقف أمام عائلة جورج، لا بدّ لنا من فعل شيء». كثيرون أمس، بعدما شاع الخبر، شعروا أنّ عليهم فعل شيء. أحد المواطنين نزل منفرداً، يحمل العلم اللبناني، واعتصم أمام مبنى وزارة التربيّة. قال إنّه سينام هناك إن لم ينجح في الحديث مع الوزير. تواصل معه هاتفياً، وقال له: «أنا لا أعرف جورج، وعليكم أن تتكفلوا بأولاده، لن أترك قضيته». مواطن آخر، وفي وقت لاحق، قصد الوزارة وكتب على أحد جدرانها «جورج شهيد». أوقفته القوى الأمنيّة. البعض يتوقّع أن ما حصل لجورج يُمكن أن يكون مناسبة لانطلاقة احتجاجيّة واسعة. هذا وارد، ووارد أيضاً أن تكون مجرّد ضجّة لأيّام معدودة، قبل أن يُقدّم عنوان جديد لضجة أخرى، ثم يبقى كلّ شيء على ما هو عليه.

يا قتلة جورج... اخرجوا من الجنازة!

بيار أبي صعب

«أنا مش كافر/ بس الجوع كافر»
زياد الرحباني

في الساعات التي تلت نبأ انتحاره، كانت الصورة الوحيدة المتداولة لجورج زريق، هي «سيلفي» من النوع المستهلك. أحد تلك الكليشيهات التي يلتقطها الأهل مع أبنائهم في يوم الإجازة. رجل ملتح في عقده الخامس، قلق بعض الشيء، إنما مكابر، يقطّب حاجبيه مركّزاً على الكاميرا، وإلى يساره طفلة تطبع قبلة على خدّه، وتبتسم بـ«شقاوة» وهي ترمق العدسة من طرف عينها. لحظة نادرة، ربّما كانت الأخيرة من نوعها تجمع الابنة وأبيها، ستدوم الآن إلى الأبد. فيها يبدو جورج مكتفياً بالأشياء الصغيرة التي تتيحها له الحياة، قبلة من ملاكه تجعل العالم نعيماً. ترى بمَ كان يفكر لحظة التقاط السلفي؟ لعلّه كان يقطع العهد على نفسه بأنه سيفعل المستحيل كي تنعم هي وأخاها بحياة أفضل من حياته. فكّر أن المصاعب التي يعانيها «مثله مثل كثير من الناس» في هذه الأزمنة الصعبة، سيجد طريقة للتغلّب عليها. كل ذلك نراه في الصورة، ونرى مصيره المفجع. الصور، أحياناً، كقارئات البخت، تحكي لنا ما سيأتي... لكنّنا لا نلتقط إشاراتها إلا متأخرين. بعد وقوع الفاجعة.

هذه اللقطة العائليّة السعيدة، باتت الآن استثنائيّة. تنضح بما كان محشوراً في الصدر، ومخبأً في زوايا البيت المظلمة، بعيداً عن عدسات التلفزيون وفضول الصحافيين. الآن صرنا نعرف: جورج شبه عاطل عن العمل. ومع ذلك، فهو مصرّ على تأمين أفضل مستوى تعليم ممكن لولديه. «أفضل مستوى تعليم»، يعني، بالنسبة إلى أبناء الشعب والطبقات الوسطى، التعليم الخاص، ومدارس الإرساليات الدينيّة. فالمدرسة الرسميّة هي القصاص الذي لا يتمناه أحد لأبنائه. ما همّ أن يكون قطاع التعليم الخاص قد تحوّل في أحيان كثيرة إلى دكاكين، على شتّى المستويات، من الابتدائي إلى الجامعي. التعميم مرفوض طبعاً، لكنّ أكثريّة المؤسسات التعليمية إزدادت شراهة، والأقساط واصلت ارتفاعها (الحق على الوضع الاقتصادي يقول القيّمون عليها). ومستوى التعليم آخذ في التراجع. «مستوى التعليم» الذي كان يقال لنا صغاراً إنّه الثروة الحقيقية للبنان، بلد «تصدير الأدمغة» إلى العالم. التعليم، ثروتنا القوميّة الحقيقية (الى جانب قطاع الخدمات طبعاً!) صار في الحضيض. «بلد ليس فيه مواد أوليّة»، حسب عبارة شهيرة، يردّدها كالببغاء رشيد، بطل زياد الرحباني، في «فيلم أميركي طويل». كان ذلك قبل النفط والغاز. الآن، سيصبح عندنا مواد أوّليّة، لكننا لن نرى من عائداتها إلا خراب ما بقي من الاقتصاد المنتج على الأرجح. النسبة الأكبر من الأرباح ستذهب للشركات الأجنبيّة، وإذا أضفت إليها كوميسيون بارونات النظام اللبناني، بالكاد سيكفي الباقي لخدمة ديوننا المتعاظمة، في بلد ديانته الرسميّة هي الاستدانة، أي المضيّ قدماً في إفقار الشعب، وبيع القطاع العام الذي يضمن حقوقه ومستقبله ورخاءه.

في هذا البلد، عاش ومات جورج زريق الذي آمن بأن التعليم هو الثروة التي سيتركها لولديه. بلد لم يعد التعليم في مدارسه الخاصة يؤمّن فرصاً للارتقاء الاجتماعي. ومع ذلك، لا يزال الناس يركضون خلف السراب. يعملون بالسخرة ويستدينون ويرهنون الأملاك من أجل علم الأولاد. كأن عاطلاً عن العمل يحمل شهادة، هو أفضل من عاطل أمّي أو بلا شهادة! نقل الأب ابنه إلى مدرسة أقل كلفة، وبقي مصرّاً على إبقاء الصغيرة في «ثانويّة سيّدة بكفتين الأرثوذكسية». ترك الأقساط المتأخّرة تتراكم، على أمل حلّ سحري لا نعرفه. أن يتلقّى مساعدة؟ أن تحدث أعجوبة؟ أن يربح في اليانصيب؟ أن ينبش كنزاً؟... أو بكل بساطة أن يجد عملاً، كما هو حق كل مواطن في البلد «الذي علّم الأبجديّة للعالم». المدرسة في بيانها التبريري بعد انتحار جورج، تقول إنّها أعفته من الأقساط منذ 2014، ما تنكره العائلة. أيكون الرجل قد وضع حدّاً لحياته كي يشكر المدرسة على جودها مثلاً؟ وماذا عن الاعتراف الذي يرد في بيان المدرسة نفسه، بأنّها مارست ضغوطاً متكررة على الأهل المقصّرين في الدفع، من خلال «نداءات خطية متتالية»؟ في كل الأحوال، اقتنع الأب أخيراً بأنه لم يعد أمامه سوى أن يفعل مثل آلاف العائلات اللبنانية التي نقلت أولادها أخيراً من التعليم الخاص إلى مدارس الدولة، بعدما ضاقت بها سبل العيش الكريم، وعزّت الفلوس: خَلّصْ، سينقل أميرته الصغيرة إلى مدرسة رسميّة! لم يكن يحتاج سوى إلى إفادة مدرسيّة. عائلة جورج تؤكّد أنّه كان قد هدد مدير المدرسة بوضع حدّ لحياته، إذا بقي الأخير مصرّاً على حجب الإفادة ما لم تسدد الديون سلفاً، لا بالتقسيط، حسب تعهّد رسمي، كما اقترح الأب القتيل.

الباقي نعرفه جيّداً. «المواطن جورج زريق أحرق نفسه أمام مدرسة ابنته»، معلناً عجزه عن مواصلة المواجهة. حاول الرجل كثيراً، وكان في كل مرّة يصل إلى طريق مسدود. هذه المرّة قرر أن يوقف المحاولات، أن يرمي سلاحه ويستسلم. وما إن أطلق جورج صيحته الاحتجاجية المدوّية التي هزّت لبنان، حتى انتشرت السموم بلمح البصر: «معلومات طبية» (لا أحد يعرف مصدرها) تؤكّد أن «جورج كان يعاني من وضع نفسي صعب»! من كان يتوقّع العكس؟ أما زال في لبنان مواطن واحد طبيعياً؟ يريدون أن يسرقوا منه حتّى موته، أن يزوّروا وصيته، أن يجعلوا دعوته الصارخة إلينا كي نصحو قبل فوات الأوان... فنحمل جذوة النار المقدسة التي تطهّر بها، ونحرق هيكل النظام الطائفي المافيوي الذي يحاصر الدولة والشعب.

هذه النهاية المأسويّة تقول كلّ شيء. هناك شعب كامل في لبنان عاطل عن الحياة، محروم من الأمل، ممنوع من المستقبل. شعب محاصر، ينزلق كل يوم أكثر إلى الهاوية، يغرق في المجارير، تطمره الزبالة، تنهار عليه الطرقات والجسور، تجرفه السيول، تحاصره الأمراض والسموم والأوبئة في الماء والهواء، تقفل بوجهه أبواب المدارس والمستشفيات... فيما الفساد والهدر مستشريان، والمؤسسات منخورة بسرطان المحسوبيات والزبائنيّة، والثراء الفاحش يتكدّس بين أيدي حفنة من الأباطرة الذين يعتاشون من سفاح القربى بين السلطة والمال، ويسخّرون المؤسسات على اختلافها من أمنية وقضائيّة ورقابيّة واقتصاديّة وماليّة وتربوية وإعلاميّة... لحماية مصالحهم وديمومة سلطتهم. وفي آخر النهار، ها هو الوزير السابق الذي باع تراث بيروت لبرابرة الاستثمار العقاري، يسخر بخفّة وفوقيّة وازدراء، من مواطنة تشكو الأوضاع الاقتصاديّة في برنامج تلفزيوني: «ما مبيّن عليك جوعانة»!

لعل أكثر ما يبعث على السخط والاشمئزاز، بعد فاجعة انتحار جورج زريق أمام مدرسة ابنته التي لا يملك تسديد أقساطها، هو ردود فعل أباطرة النظام ومعارضي التنك، التي تعكس قدراً مخيفاً من قلّة الحياء. بدلاً من أن يصمت هؤلاء، أن يختفوا عن الأنظار، ها هم يتاجرون بدمه، ويزايدون على موته. ها هم يتصدّرون الجنازة، ويتقبّلون التعازي بالرجل الذين ساهموا مجتمعين وفرادى في قتله. ها هم يطالبون بالعدالة الاجتماعيّة، الآن وهنا! وزير التربية أمر «بفتح تحقيق لجلاء الملابسات المحيطة بالحادثة»، وأعلن أنّه سيتولى تعليم ولدَي جورج زريق. «حزب سبعة» دعا، بديماغوجيّته اللزجة، إلى «غضب الأهالي» أمام وزارة التربية، كأنّ الانهيار سيتوقّف بسحر ساحر، كما في الأوبريت الرحبانيّة...

جورج شعب كامل من المرشحين لنهايات فاجعة. وعندما يحاصر اليأس الناس إلى هذا الحد، لا يعود أمامهم إلا الانفجار الكبير. حين أحرق يان پالاخ نفسه في 19 يناير 1969، كان يعلن ولادة «ربيع براغ». ولمّا أضرم محمد البوعزيزي النار في جسده، يوم 17 ديسمبر 2010 في سيدي بوزيد، كان يطلق شرارة التغيير في تونس. ماذا ينتظر اللبنانيون؟ عشيّة انطلاق عمل الحكومة الجديدة التي تدل كل المؤشرات على أنّها ستمضي في إفقار الشعب وإغناء مصاصي الدماء، الطبقة الحاكمة ستحمّل الأكثريّة الساحقة من الشعب اللبناني تبعات السياسات الكارثيّة التي راكمها أسياد النظام المتعاقبون، منذ الطائف وولادة الحريرية السياسيّة إلى الأزمة الحاليّة. فهل نبقى، بعد فاجعة الكورة، شعباً يمضي إلى قبره مطمئناً؟ أم نرفع قبضاتنا خلف تابوت جورج زريق، نجرد قتَلَته من إقطاعيّاتهم، وننتهرهم أن: اخرجوا من الجنازة!

علم وخبر

«سكران» في مزارع شبعا!

تبيّن أن المواطن اللبناني، ع. ح. الذي خطفه العدو الإسرائيلي من مزارع شبعا ثمّ عاد وسلّمه إلى قوات «اليونيفيل»، التي سلّمته بدورها إلى الجيش اللبناني، ما هو إلّا «هاوي مخاطر». وفي التفاصيل، أن ابن بلدة المشرفة في قضاء عاليه يمضي عطلة في لبنان، آتياً من كندا التي يحمل جنسيتها، أبلغ أهله عن نيته التوجّه إلى الثلج قبل يومين، ثمّ قصد مزارع شبعا، حيث ركن سيارته قرب بركة النقار وتوجّه مشياً على الأقدام نحو موقع الرادار التابع للعدو الإسرائيلي، بعدما احتسى كمية كبيرة من الكحول. وقد خطفه جنود الاحتلال، للتحقيق معه قبل أن يسلّموه، عبر القوات الدولية، إلى استخبارات الجيش اللبناني، التي استكملت التحقيق معه في ثكنة صيدا، حيث أكّد أنه قام بالأمر حبّاً بالمغامرة!

جبق يلغي قراراً لحاصباني

إضافة إلى ما أثير في الإعلام قبل يومين، ألغى وزير الصحة جميل جبق قرار وزير الصحة السابق غسان حاصباني الرقم 135/1 الصادر بتاريخ 2019/1/23. وينص قرار حاصباني على توزيع موظفين ومتعاقدين وأجراء من مراكزهم الى مراكز أخرى بقرار فردي. لذلك جاء قرار جبق الذي حمل الرقم 234/1 والذي ألغى قرار الوزير السابق لأنه «يتضمن مغالطات قانونية وعدم موافقة الرؤساء المباشرين لأغلب المعنيين، ولأن مسألة توزيع الموظفين تتطلب إعادة نظر ودراسة».

يفوت من الاتصالات إلى الداخلية

علمت «الأخبار» أن وزيرة الداخلية ريا الحسن طلبت من رئيس الحكومة سعد الحريري أن يكون مستشار وزير الاتصالات نبيل يفوت مستشاراً لها في الوزارة. وقد وافق الحريري على الأمر رغم استياء وزير الاتصالات الجديد محمد شقير من هذا الأمر، على أن يتم تعيين الموظف في وزارة الاتصالات محمد شعبان بدلاً من يفوت، ولا سيما أن الأخير أبدى حماسة لطلب الوزيرة الحسن. من جهة أخرى، بعد تعيين مستشار وزير الداخلية السابق نهاد المشنوق العميد شفيع عراجي رئيساً لمصلحة النفوس بالوكالة، أثار هذا الأمر استياء رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي النائب السابق وليد جنبلاط، بعدما كان آخر من شغل هذا المنصب موظف من الطائفة الدرزية.